السيرة الفلسفية قاسم مشترك بين الحضارة اليونانية والحضارة الإسلامية

« نموذج من أبى بكر الرازى »

أ.د. عبد اللطيف محمد العبد(*)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد

فإن السيرة الفلسفية لأى فيلسوف، تعتبر صورة من سلوكه ومنهجه، فى إطار المبادئ والقيم، التى آمن بها وطبقها فى حياته.

وقد اهتم العديد من فلاسفة الإسلام، بالحديث عن سيرهم الفلسفية، التى انتهجوها وطبقوها فى صورتها المثالية.

ولم يكن فلاسفة الإسلام الذين فعلوا ذلك، بدعاً بين الفلاسفة، بل إنهم حَذَوْا فى هذا حذو حكماء وفلاسفة اليونان، من أمثال أفلاطون فى جمهوريته. هذا بالإضافة إلى قوة شخصيتهم وعمق ثقافتهم التى استمدوها من تعاليم الإسلام.

ولن نستطيع فى هذه العجالة، أن نستعرض كل ما جاء عن السيرة الفلسفية لدى فلاسفة اليونان والإسلام، لكننا سنكتفى بنموذج واحد بارز لدى أبى بكر محمد بن زكريا الرازى (المتوفى عام ٣١٣هـ) فى سيرته

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية – وكيل الدراسات العليا والبحوث – كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

الفلسفية التى نشرها بول كراوس عام ١٩٣٨م.

فقد أكب أبو بكر الرازى على الفلسفة اليونانية وغيرها فى سنّ مبكرة. وكان منذ حداثته ميالاً إلى المعرفة العقلية ومشغولاً بها. وساعده على هذا ذكاء وفطنة؛ ولذا بَرَعَ فيه براعة السابقين، لكن مع تميّز واستقلال فى الشخصية[1].

وقد رأى الرازى، أن الفلسفة طريق موّصل إلى الحق، وأنها السبيل الوحيد لإصلاح الفرد والمجتمع؛ بما تنير به العقول والنفوس.

ولم يكن أبو بكر الرازى صاحب فلسفة انعزالية مهوّمة بعيدة عن الواقع؛ بل إن فلسفته كانت تتصل بالواقع الإنسانى، وتلتحَم به، وتصلح من شأنه. فى عمق واتزان.

وعنده أن سيرة الفلاسفة الأفاضل الأخيار؛ الذين كان رائدهم الحقُّ والخير – إنما هى من خَيْر السير؛ ولذا كان الاقتداء بهم واجباً؛ حيث التزموا العدل فى معاملة الناس، وتمسكوا بالفضائل والمُثُل، واستشعروا النصح والعفّة والرحمة؛ وكثيراً ما اجتهدوا فى نفع البشرية، وفى هذا يقول أبو بكر الرازى:

« **إن السيرة التى بها سار، وعليها مضى أفاضل الفلاسفة، هى بالقول المجمل: معاملة الناس بالعدل، والأخذ عليهم من بعد ذلك بالفضل، واستشعار العفّة والرحمة، والنصح للكل، والاجتهاد فى نفع**

(١) د. عبد اللطيف محمد العبد: أصول الفكر الفلسفى عند أبى بكر الرازى. ص ١٩ – ٣٠ ط ١٩٧٧م مكتبة الأنجلو المصرية.

الكل[1]».

فالرازى يجلّ فلاسفة اليونان غاية الإجلال، ويحترمهم كما يحترم نفسه، فكل قول لهم ينال لديه اهتماماً وتقديراً. وهذا لا يمنع من معارضته أحياناً لبعض آرائهم.

وهو يوافق فلاسفة اليونان على تعريفهم للفلسفة بأنها:

«**التشبه باللَّه عزوجل، بقدر ما فى طاقة الإنسان**[2]».

ومعناه أن يتحلى الفليسوف بجميع الأخلاق السامية، وأن يترفع عن الدنايا والنقائص، بقدر ما يستطيع.

ومن ثَمَّ فإن الرازى يوافق أيضاً، على تعريفهم للحكيم أو الفيلسوف الحق بأنه هو:

«**من عرف شروط البرهان وقوانينه، واستدرك، وبلغ من العلم الرياضىّ والطبيعى والعلم الإلهى، مقدار ما فى وُسْع الإنسان بلوغُه**[3]».

ويعرف الرازى كبار فلاسفة اليونان جيداً، بل إنه ليذكر أسماء ثمانية منهم فى موضع واحد، ومنهم سقراط وأفلاطون وأرسطو، ناعياً على من يريد الوصول إلى مرتبتهم دفعة واحدة فى فترة وجيزة، وذهب إلى أن

---

(١) أبو بكر الرازى: الطب الروحانى. ص ٩١ (ضمن رسائل فلسفية للرازى) تحقيق/ بول كراوس. مصر ١٩٣٩م.

(٢) أبو بكر الرازى: السيرة الفلسفية ص ١٠٨ (ضمن رسائل فلسفية للرازى) تحقيق/ بول كراوس. مصر ١٩٣٩م.

(٣) الرازى: الطب الروحانى. ص ٤٣.

التثقف بفلسفة هؤلاء شرط أوّلى لتكوين الفيلسوف[1].

ومن أجل حرص الرازى على أن يلقب بالفيلسوف، فقد حاول التجافى عن ألم سوء السيرة؛ ولذا دافع عن سيرته الشخصية، وبّرأ نفسه مما رماه به قوم من أهل النظر والتحصيل والتمييز، من آراء إتلافية لم يصلوا إليها ببرها أو مناقشة حُرّة. وقد أخذ هو على عاتقه مهمة تفنيد ادعاءاتهم فى ذلك، كاشفاً عن جهالتهم وعدم اطلاعهم.

وإن هؤلاء قد رأوا الرازى يداخل الناس، ويتصرف فى وجوه المعاش، فعابوه واستنقصوه، وزعموا حيدته عن مسيرة الفلاسفة، وبخاصة سيرة سقراط (٤٦٩-٣٩٩ ق.م) إمام الفلاسفة. وفى هذا يقول الرازى:

«إن ناساً من أهل النظر والتحصيل، لما رأونا نداخل الناس، ونتصرف فى وجوه من المعاش؛ عابونا واستنقصونا، وزعموا أنا حائدون عن مسيرة الفلاسفة، ولا سيما عن مسيرة إمامنا سقراط[2]».

لقد كان الرازى يمجد سقراط وبينهما حوالى ١٣٢٤ عاماً، ويمجد تلميذه أفلاطون. ومن هنا كان التعرف على السيرة الفلسفية لسقراط، إنما هو تعرّف غالباً على السيرة الفلسفية لأفلاطون؛ نظراً لصعوبة الفصل بين السيرتين فيما ورد إلينا من محاورات[3].

---

(١) الطب الروحانى (السابق) ص ٦٣

(٢) السيرة الفلسفية (السابق) ص٩٩.

(٣) جورج سارتون: تاريخ العلم ٢ : ٧٠ ترجمة مجموعة. ط ١٩٥٧م، دار [illegible] بالقاهرة.

ويتضح مما سبق: أن الرازى كان شديد الحرص على شرف سيرته الفلسفية ونقائها قولاً وعملاً؛ مبيّنا أنه لم يحد عن سيرة أستاذه سقراط وسماته فى هذا المجال[1].

ولم يكن الرازى فى اتباعه لسيرة سقراط ودفاعه عنه، بدعاً فى ذلك المضمار، فقد فعل مثله أولُ المشائين الإسلاميين وهو الفيلسوف **الكندى**[2]، وكذلك **الفارابى**[3]، وابن سينا، وإخوان الصفاء[4].

- وحديثاً عقد روسو موازنة بين سقراط والمسيح عليه السلام كما وصفه الشاعر شيلى بأنه مسيح اليونان.

وقد استعرض الرازى شيئاً مما رماه العُيّاب فى سيرة سقراط، من أنه كان يعزف عن حضور مجلس الملوك، ويعزف عن لذيذ الطعام والشراب، وعن فاخر الثياب والبناء، وأنه كان يسدّ رمقه ببعض الحشائش، ويستر جسده بكساء خَلَق، ويأوى إلى البّرية.

وذهب الرازى إلى أن ما عابوه من سيرة هذا الفيلسوف العظيم، إنما

---

(١) د. أحمد عرفات القاضى: صورة الفيلسوف بين أفلاطون وفلاسفة الإسلام. طبع ٢٠٠٠م القاهرة.

(٢) دى بور: تاريخ الفلسفة فى الإسلام. ص ١٧٧ ترجمة: د. محمد عبد الهادى أبو ريدة. مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة.

(٣) الفارابى: آراء أهل المدينة الفاضلة. ص ٨٧ – ٨٨. ط ١٩٠٦م، مطبعة السعادة بالقاهرة.

(٤) د. حامد طاهر: الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا. ص ٢٢ ط ١٩٩١م. دار الثقافة العربية.

كان فى بدء حياته، ثم اندمج فى الحياة الاجتماعية مثل غيره. فقد توفى سقراط تاركاً بنات، وحارب، وتمتع بالطعام والشراب:

«**ومن فعل ذلك فقد خرج عن أن يكون ساعياً فى خراب الدنيا وبوار الناس**[1]».

ويذكر الرازى أن سقراط فعل ما فعل من الزهد والتقشف فى بداية حياته، لشدة إعجابه بالفلسفة وحبّه لها.

كما يؤكد الرازى أنه لم يخالف الأحمد من سيرة ذلك المعلم العظيم؛ الذى بلغ درجة المثالية فى رأيه. لكنه يعترف بأنه لم يبلغ شأوه فى محبة المعرفة وقمع الهوى.

هذا وإن قوام السيرة الفاضلة للفيلسوف فى رأى الرازى، يتمثل فى لزوم العدل والعفّة والإقلال من مماحكة الناس ومجاذبتهم؛ متى يسْلم الإنسان من أذاهم، وينال محبتهم[2].

ويتضح مما سبق: أن التفكير الفلسفى فى الإسلام، كان له نوع من التأثر بالفلسفة اليونانية، وهذا أمرٌ معروف فى مختلف الحضارات. لكن مع مراعاة أن التأثير الذى نفذ إلى الثقافة الإسلامية، تفاعل معها، وولّد أفكاراً جديدة[3].

---

(١) السيرة الفلسفية ص١٠١.

(٢) الطب الروحانى. ص ٩٢.

(٣) د. إبراهيم مدكور: فى الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه ١ : ٢٢، ط٢، ١٩٧٦م، دار المعارف، مصر.

وبالنسبة لأبي بكر الرازى – كمثال واحد – فإنه اقتدى فى السيرة الفلسفية بسقراط، وفعل فعله وسلك سلوكه. ولم يتناف ذلك مع قيمته كمفكر وكمسلم احتفظ بعقيدته الإسلامية، ولم يخرج على تعاليم الإسلام الرشيدة.